حديث القرآن

عن محمد — صلى الله عليه وسلم

للدكتور محمد سعاد جلال

الأستاذ بكلية الشريعة

سورة الضحى :

قال تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

هذه السورة الكريمة فيما أرى جديرة أن تسمى سورة « الحب » .

وإذا نحن خلينا محاولات المفسرين فى تفسيرها عند ما أرادوا ، فإنا نجد هذه السورة المضيئة التى تتلألأ كنجم وهاج ، فى وحدة بلاغية متكاملة عميقة التكوين ، بارعة الأسرار ، تمثل أروع مظاهر الحب والعناية الذى فاضت به الذات الإلهية المقدسة على النبي — صلى الله عليه وسلم — حتى لأخشى أن أقول أنها صدرت عن الذات الإلهية المقدسة على نمط من الغزل والعشق الذى تعارفته النفوس البشرية العاشقة ، أشد ما تكون هوى وضراما .

١ — « والضحى والليل إذا سجى » .

أقسم الله بالضحى ، وبالليل إذا سجى ، والضحى صدر النهار إذا عظم شعاع الشمس وتوهج نورها ، وسجوُ الليل سكوته وصمته .

ومعلوم لنا أن الله لا يقسم بشيء من مخلوقاته مما يقسم به ، إلا لسر من أسرار

البلاغة البعيدة التى توقظ فى وجدان المخاطب ، أو فى عقله من المعانى الدقيقة ، أو الضخمة ، مالا يتأتى لأداة اللغة البيان عنه إلا بالرمز ، والإشارة .

كان من سبب نزول هذه السورة . فيما أكثرت فيه رواية المفسرين أن الوحى انقطع عن النبي — صلى الله عليه وسلم — فترة من الزمن ربما بلغت أربعين يوماً .

فجزع — صلى الله عليه وسلم — لفترة الوحى هذه جزعا شديداً وتطاولت ألسنة السوء إلى مكانه ، حتى قال قائلون من المشركين : « إن محمدا أودعه ربه وقلاه — أى — أبغضه » وقالت أم جميلة امرأة أبى لهب ، ما أرى شيطانك إلا تركك ، على ما زين لها شركها وجحودها .

ففيم هذا الجزع الذى تصف الرواية عنه — صلى الله عليه وسلم — بأنه كان جزعاً شديداً . ؟

أفكان يخاف على نفسه أن ينقطع الوحى عنه ؟ كلا فإنه لم يوحى إليه — صلى الله عليه وسلم — بالنبوة إلا وهو يستيقن أن الوحى لا ينقطع عنه أبداً ، وإن اصطفاء الله له بالرسالة ماض حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتثبت رسالته فى الأرض .

ففيم إذن كان هذا الجزع الشديد الذى اعتراه — صلى الله عليه وسلم — لفترة الوحى ، أياماً ، أو أسابيع .

إنه الشوق إلى مناجاة الحق سبحانه وتعالى — الشوق العارم ، العنيف ، المسلط ، الذى ملك عليه جوانب نفسه ، ونفذ إلى شغاف قلبه ، لكلام الله الكريم ، يتنزل به الروح الأمين ، على قلبه ليكون من المنذرين .

هذا التلقى لكلام الله ، أو هذه المناجاة مع الله ، أو هذا الإلتقاء فى جو القدس الأعلى — مما لا تستطيع تصوره ، أو تصويره — على حسب ما كان يقع من حقيقته المباشرة ، قد أستغرق نفس النبى — صلى الله عليه وسلم — نفس النبى كلها . بأنموذج خارق من لذة الروح ، وسعادة الوجدان ، جعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — لا يطيق أن يجد لذاته وجوداً بعيداً عما ذاق ، وأنس وعاش ، من هذا الوحى ، حتى لتقول بعض الروايات — أن النبى صلى الله عليه وسلم — أصابه من

شدة الشوق الذى غلب على نفسه ، أنه كان يصعد فوق قمة الجبل فيوشك أن يتردى بنفسه من فوقها .

ومحال على ذاته الشريفة أن ينفذ شيئاً من ذلك ولكن حال العشق التى كان يعانيها صلى الله عليه وسلم — والتى كان تعتلج فى جوانحه — وهى حال يتعالى على أقلام البشر ، النفوذ لسرها ، كان من شأنها بحسب ظواهرها الترامية ، أن تثير فى نفس أى بشر — ولو كان نبياً — كثيراً التصورات المزعجة —

روى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال لجبريل ما جئتنى حتى اشتقت إليك — فقال له جبريل كنت إليك أشوق .

ومعلوم أن شوق النبي — صلى الله عليه وسلم — لم يكن لجبريل على الحقيقة والأصالة — وإنما كان شوقه — صلى الله عليه وسلم — للوحى ، الذى يحقق له حال المناجاة ، والاتصال ، بل الاندماج — بين روحه — صلى الله عليه وسلم — وأنوار الذات القدسية هذه الحال ذات الهيمنة الطاغية على وجدانه ، المستوعبة لكل مظاهر وجوده ، النافذة إلى أعماقه ، والتى أوشكت — بحسب تعبيراتنا الجريئة — أن تطير بنفسه شعاعا ، عند إبطائها وفتورها ، أياما ، أو أسابيع .

ثم عاد إليه الوحى صلى الله عليه وسلم — بهذه السورة وفى طالعها القسم بالضحى ، والليل إذا سجى ، أن ربه — رب محمد — هذا العاشق المعنَّى — باق على وصاله ومحبته لم يهجره ، ولم يبغضه ، كما أرجف بذلك المرجفون من أعدائه وحسّاده ، فما أبدع المناسبة أن يحصل القسم بهذين الوقتين من الليل والنهار ، فى خطاب عاشق استبد به العشق ، مشتاق غلب الشوق على صميم نفسه — فهما الوقتان اللذان تستيقظ فيهما نوازع النفوس العاشقة ، وتثور الذكريات لدى القلوب المشتاقة الولهى .

فى الضحى تسطع أضواء الشمس قوية باهرة ، غزلة ، فياضة ، فتوقظ فى أعماق الإنسان ، أقوى إحساسه بالجمال ، وبالغزل ، وبالشعر ، وبالحب ، وبمعانى الفن كلها: من متألم يقف ساعة الضحى على حافة الصحراء الضاحكة أو على شاطىء النيل المتموج بألوان الذهب ، أو أمام المروج الخضر البهيجة المهتزة ، من متألم يقف مثل

هذه الوقفة ، فيحس فى أعماقه استجابة للجمال ، والحب ، والذكرى وفى الليل إذا سكن كل شىء فى أعماقه ، ونامت فى حناياه الأصوات والحركات ، وثابت السرائر إلى أصحابها ، وفاضت فى ذلك الهدوء الوسنان بمكنوناتها وأشجانها وتجسد للعشاق والمحبين ، ذكرياتهم وأمانيهم ، فغدوا منها على حديث ونجوى فهذان الوقتان — اللذان أقسم بهما القرآن — فى خطاب عاشق ثقلت عليه أشواقه — هما قسمة الزمن التى تقع من حظ العشاق والمشتاقين : ويكشف عن هذه الحقيقة الوجدانية التى تربط بين حركة النفس وحركة الزمن قول الشاعر العربى فى نفس المعنى :

وحملت زفرات الضحى فأطقتها ومالى بزفرات العشى يدان

وقول الآخر :

أإن هتفت ورقاء فى رونق الضحى على فنن غض النبات من الرند

بكيت كما يبكى الوليد صبابة وأبديت الذى لم تكن تبدى

وهكذا تبدو المناسبة بديعة رائعة عميقة نافذة لأختيار القرآن الكريم القسم بالضحى والليل إذ سجى . فى هذا المقام الذى لا يلحظ مقتضاه بغير الحس الفنى والألمعية الأصيلة .

فكأنه سبحانه — يقول لنبيه وحبيبه . إنى عليم بالذى برح بنفسك من الشوق والحب لذاتنا فأنا أقسم بأشد أوقات حبك فيضا واشتعالا . بأنى على مثل ما يعتمد إليه حبك ، وشوقك ، ويتطلع إليه رجاؤك وأملك ، لم أهجرك ولم أبغضك .

٢ — « ما ودعك ربك وما قلى »

التوديع : الهجر . والقلى : البغض

يثبت القرآن فى هذا الموضع أن الله لم يهجر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأيضا لم يبغضه ، ليؤكد له أن هذا وصال المجاملة والتكرم الذى قد يصطنعه بعض الكرماء من الناس مع من كان لهم إلفا ، ثم زالت محبته من قلوبهم وظلوا على وصالهم له مجاملين ، فلقصد هذا المعنى ، لم يكتف القرآن فى تصوير الاستجابة لشوق النبى صلى الله عليه وسلم : ببيان أنه يهجره حتى أردف ذلك ببيان أنه لم يبغضه أيضا

ـ أى ـ ما زال على حبه له ـ وأن وصاله له إنما هو وصال المحبة والمودة ، لا وصال المجاملة والتكرم .

ثم أنظر الحنان والتثبيت لقلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يقول « ماودعك ربك » إنما يختار القرآن بالذات من أسماء الله كلمة « ربك » لأن « الرب » يشير إلى معنى التربية والتنشئة والعناية بشخص المخاطب من أول الأمر .

فإذا كان المعشوق المحبوب المنادى ، هو ذلك « الرب » الذى قام على تربيتك ، وتعهدك بالعناية من أول أمرك . فكيف يجوز أن يهجرك ويبغضك ، وهو الذى عرفك بنفسه ، وسبق إليك بعنايته وحبه ؟